مناهج
علماء المتشابه اللفظي
في توجيه الآيات المتشابهة

الدكتور: صالح بن عبد الله الشثري

أستاذ البلاغة القرآنية

ورئيس قسم العلوم الإنسانية

كلية الملك خالد بالرياض

مقدمة :

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة والفريدة التي لم يعرف لها مثيل، فلم يُقيد بما قيّد به غيره من المعجزات، فهو كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحِكَمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، ففي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفروع، قد تحدى المولى سبحانه وتعالى على لسان نبيه محمد النبي الأمي صلوات ربي وسلامه عليه العرب قاطبة بإعجازه، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، واجتثاث نبتته.

لقد بهر القرآن الكريم العقول بما يحويه من وجوه الإعجاز، ففيه الإعجاز العلمي الكوني، والإعجاز التشريعي الفريد، والإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن الغيب في المستقبل، ومن ذلك أيضاً الإعجاز البياني البلاغي المتمثل في أسلوب القرآن ونظمه وتركيبه اللغوي، ومن ذلك الآيات المتشابهات التي لا فرق بينها إلا في حرف، أو كلمة، أو تقديم أو تأخير، وغير ذلك من الاختلافات التي تؤكد إعجازه، وعظم بلاغته، ومنتهى فصاحته.

وهذا البحث يبرز جهداً متميزاً في علم من علوم القرآن الكريم، ألا وهو توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، هذا العلم الذي غفل عنه الكثير، هو سر من أسرار إعجاز كلام رب العالمين الذي نزل على النبي الأمي الأمين صلى الله عليه وسلم، فألف فيه علماء أجلاء مؤلفات لها أثرها ومكانتها العظيمة، في علوم القرآن وإبراز إعجازه وبلاغته، فما منهج علماء تلك المصنفات التي أصبحت علماً ونوراً تهدى به في فهم كتاب الله تعالى وتدبره.

هذا البحث الموجز سيعرض مناهج أبرز ثلاثة علماء ألفوا في هذا العلم، وذلك بعد مدخل يوضح دلالة هذا العلم والمراد به، وسنتحدث في مباحث ثلاثة عن::

المبحث الأول: منهج الخطيب الإسكافي في درة التنزيل وغرة التأويل.

المبحث الثاني: منهج الكرماني في البرهان في متشابه القرآن.

المبحث الثالث: منهج ابن الزبير الغرناطي في ملاك التأويل.

مدخل:

ذكر علماء اللغة أن المتشابه يطلق في اللغة على ما تماثل من الأشياء، وأشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يلتبس من الأمور[١]، يقول المناوي(ت١٠٣١): (المتشابه: المشكل الذي يحتاج فيه إلى فكر وتأمل)[٢]. أما متشابه القرآن حين يطلق فإنه يطلق على نوعين، الأول: المتشابه المعنوي، وهو يقابل المحكم، وقد دار حول هذا النوع جدل كبير بين العلماء لتحديد المراد منه في القرآن الكريم، وهو ليس مجال بحثي في هذا الكتاب، وخلاصة ذلك أن المراد به الغامض المشكل مما استأثر الله سبحانه بعلمه كعلم المغيبات، وعلم الساعة، أو أنه مما التبس فهم المراد منه، من حيث خرج ظاهره عن دلالته على المراد به، لشيء يرجع إلى اللغة، أو العقل أو غير ذلك[٣]، وقد تناوله الزركشي في البرهان، في النوع السادس والثلاثين (معرفة المحكم من المتشابه)، كما بحثه السيوطي في الإتقان، وكذلك في معترك الأقران، وكذلك كتاب التحبير[٤]، وأبرز كتب هذا النوع: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت٢٧٦)، وحقائق التأويل في متشابه التنزيل للشريف الرضي(ت٤٠٦)، ومتشابه القرآن للقاضي عبد الجبار (ت٤١٥).

أما النوع الثاني وهو مجال البحث في هذا الكتاب، فهو المتشابه اللفظي، والمراد به الآيات التي تكررت في القرآن الكريم، في القصة الواحدة من قصص القرآن أو موضوعاته، في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، وفواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقديماً وتأخيراً، وذكراً وحذفاً، وتعريفاً وتنكيراً، وإفراداً وجمعاً، وإيجازاً وإطناباً، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى ونحو ذلك، مع اتفاق المعنى العام لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق يراد تقريره، لا يدركه إلا من آتاه الله علماً وفهماً لأسرار كتابه، وهي بحق كنز ثمين من كنوز إعجازه، وسر من أسرار بيانه.

يقول الزركشي: (هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع طُرِق ذلك)[٥]،

---

(١) انظر: لسان العرب: ٥٠٣/١٣.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤف المناوي: ٦٣٣.

(٣) انظر: متشابه القرآن دراسة موضوعية للدكتور عدنان زرزور: ١٥-٥٣.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١١٣/١، الإتقان في علوم القرآن: ٢/٢، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن: ١٠٣/١، والتحبير في علم التفسير: ١٠١.

(٥)البرهان في علوم القرآن: ١١٣/١.

ومراده بالقصة: الأمر والموضوع مطلقاً، سواء ورد الاختلاف في أثناء القصة القرآنية، أو غيرها، وهذا النوع ألّف فيه العلماء مؤلفات كثيرة جداً(٦).

من ذلك (متشابه القرآن) لعلي بن حمزة الكسائي (ت١٨٧)، و(حل الآيات المتشابهة) لمحمد بن الحسن بن فورك (ت٤٠٦)، و(هداية المرتاب) لعلي بن محمد السخاوي (ت٦٤٣)، وهذه الكتب مع غيرها أشبه ما تكون بمعاجم لجمع الآيات المتشابهة من غير توضيح العلل والأسباب لذلك الاختلاف بين الآيات.

ويستثنى من الكتب التي ألفت خمسة كتب اعتنت بتعليل الآيات المتشابهة في ألفاظها، وهي:

أولاً: كتاب(درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي (ت٤٢٠)، ويعد بحق أهم كتب هذا الفن، وهو أول من فتح أبواب هذا العلم.

ثانياً: (البرهان في متشابه القرآن) لمحمد بن حمزة الكرماني(ت ٥٠٥)، وهو مطبوع بعدة تحقيقات من أفضلها تحقيق: أحمد خلف، وقد اعتمد الكرماني على كتاب الإسكافي كثيراً، كما اختصر وأوجز مواضع كثيرة منه.

ثالثاً: (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) لابن الزبير الغرناطي(٧٠٨)، وهو أوسع الكتب وأبسطها.

رابعاً: (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لبدر الدين بن جماعة (ت٧٣٣)، وقد اعتمد ابن جماعة على كتاب الكرماني، كما أفاد من ابن الزبير.

خامساً: (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) لأبي يحي زكريا الأنصاري (ت٩٢٦)، وقد اختصر ما ذكره الكرماني.

الدراسات السابقة: مع أهمية هذا العلم في خدمة كتاب الله العزيز، وتدبر نظمه المعجز، وتوجيه ما اختلف فيه من الآيات المتشابهة، وحمايته من طعن الطاعنين وكيد الملحدين إلا أن اهتمام العلماء به لم يكن كبيراً كما هو المتوقع، ولا يقاس مطلقاً بما ألف في بعض علوم القرآن كالتفسير ونحوه..، ولعل من

---

(٦)انظر: كتاب متشابه القرآن دراسة موضوعية، ومقدمة تحقيق كتاب كشف المعاني لابن جماعة: ٥٩-٦٢، ومقدمة تحقيق كتاب درة التنزيل: ٤٩-٥٢.

دواعي قلة التأليف في هذا العلم وعورة مسلكه، ودقة مباحثه وغموضها إلا لمن امتلك الأدوات، ورزق الصبر والنظر الدقيق المتكرر.

وقد كانت دراسة المتقدمين لهذا الموضوع عبارة عن جمع للآيات المتشابهة، فهي أشبه بمعجم بين يدي الدارسين والمطلعين، فلم تذكر تلك المؤلفات توجيه الآيات المتشابهة، ومن الأمثلة على ذلك: كتاب (متشابه القرآن) لعلي بن حمزة الكسائي يقول محقق الكتاب: (كان يجدر بالكسائي وهو إمام في اللغة والنحو أن يذكر علة التشابه والاختلاف بين الآيات، كما فعل بعض من ألّف في المتشابه، ولكنه لم يذكر من ذلك شيئاً أبداً، وهذا من المآخذ الواضحة على كتاب المتشابه للكسائي..)(٧). وكذلك كتاب (متشابه القرآن العظيم) لأبي الحسين المنادى، ومثله كتاب(هداية المرتاب) للسخاوي، وهو مجرد منظومة لجمع الآيات المتشابهة لتسهيل حفظها على الطلاب، وهذه الكتب لم تعن ببيان العلة، وتوجيه سبب الاختلاف بين الآيات المتشابهة، كما أنها لم تستوعب كل الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً في القرآن الكريم، فهي أشبه ما تكون بمختصرات يستفيد منها حفظة كتاب الله تعالى.

ولا نستثني منها إلا الكتب الخمسة التي سأكتفي بالحديث عن الثلاثة الأول، نظراً لأهميتها، ولتقدم أصحابها، أما الرابع والخامس ففيها اعتماد واضح على من تقدمها، ، وقد عرفنا أن أبرزها وأهمها اثنان (درة التنزيل) لسبقه وقدمه، و (ملاك التأويل) لبسطه وتوسعه، كما أن هذه الكتب قد استوعبت كثيراً من الآيات المتشابهة في القرآن الكريم، لأن كل كتاب يستدرك ما فات الذي قبله.

المبحث الأول: منهج الخطيب الإسكافي:

الخطيب الإسكافي هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي الرازي(١)، الأديب اللغوي، صاحب التصانيف الحسنة، وأحد أصحاب ابن عباد (ت٣٨٥)، وكان من أهل أصبهان، وخطيباً بالري، لقّب بالإسكافي نسبة إلى الأسكفة، وهي حرفة كان ينتسب إليها.

---

(٧) متشابه القرآن: ٢٣٢.

أما وفاته رحمه الله فالقول المشهور عند أصحاب التراجم أنه توفي سنة عشرين وأربعمائة من الهجرة النبوية (٤٢٠) هـ، وقيل سنة (٤٢١)هـ،وهذا القول قال به صاحب كشف الظنون، وهدية العارفين(٨).

أما الكتاب فهو "درة التنزيل وغرة التأويل"، وموضوعه حصر الآيات المتشابهة في القرآن الكريم تشابهاً لفظياً، ومعرفة الاختلافات الدقيقة فيما بينها، ثم القيام بتعليل هذه الاختلافات وتخريجها بالنظر إلى مواقعها في سور القرآن الكريم، أو في سياق الآيات ونظم السور، أو بالنظر إلى أحوال المخاطبين، أو بالنظر إلى الترتيب القرآني حسب ما في المصحف، أو حسب النزول، أو غير ذلك من الأسباب وطرق التوجيه التي يتم بها إيضاح العلة في تلك الاختلافات بين الآيات المتشابهة(٩).

أما سبب تأليف الكتاب فهو لرفع اللبس في الآيات المتشابهة، وبيان أسرار الاختلاف بينها، والبحث عن الحكمة من ذلك الاختلاف الوارد.

كما يرى أيضاً أن من أسباب تأليف الكتاب عدم بحث هذا الموضوع من قبل العلماء المتقدمين بمثل ما أخرجه في كتاب الدرة، فهذا الأمر أوجب عليه تأليف مصنف فيه.

ومن أسباب تأليفه أيضاً الرد على الملحدين الطاعنين في كتاب الله تعالى الذين يزعمون أن هذه الآيات المتشابهة دليل على خلل في الأسلوب، وتعارض بين الآيات، فجاء الكتاب لبيان الحكمة من الاختلاف، وأن هذا أحد أسرار إعجازه، يقول: (...ولطعن الطاعنين رداً، ولمسلك الملحدين سدّا)(١٠)، ويقول في آخر الكتاب:(هذا آخر ما تكلمنا عليه من الآيات التي يقصد الملحدون منها إلى التطرق منها إلى عيبها، والحمد لله وحده..)(١١).

---

(٨) انظر: ترجمته في: معجم الأدباء: ٢٥٤٩/٦، والوافي بالوفيات لصفوت الصفدي: ٣٣٧/٣،وبغية الوعاة للسيوطي: ١٤٩/١، وانظر: درة التنزيل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين: ١٨/١-٢٧.

(٩)درة التنزيل: ٣.

(١٠)المصدر السابق: ٣.

(١١)المصدر السابق: ٣٠٦.

منهج المؤلف:

يُعد كتاب الدرة بحق أهم كتب هذا الفن، فهو أحد المصادر، بل هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بحث المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وهذا الكتاب يمكن أن يقال عنه: أنه تميز ببراعة الإنشاء والابتكار من قبل مؤلفه رحمه الله، إذ لم يسبق إلى هذا العمل في توجيه الآيات المتشابهة لفظاً، فهو أول من فتح باب هذا العلم، فله قدم السبق، وكفى به من إنجاز، يقول في مقدمة الكتاب: (...فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف ولم يقرع بابها، ولم يفتر لهم عن نابها، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما وقع فرقاناً..).

– سلك المؤلف في كتابه مسلك المفسرين، فرتّب كتابه على ترتيب السور والآيات في المصحف الشريف،فبدأ بسورة البقرة ثم آل عمران وهكذا، يبدأ بالآية الأم التي تكون البداية للمتشابهات ثم يلحق بها ما يشابهها من الآيات من السورة نفسها،ثم من باقي سور القرآن الكريم، كل ذلك بشكل مرتب،وبطريقة استقرائية دقيقة. فيقول مثلاً: سورة البقرة، الآية الأولى منها، وبعد أن ينتهي من توجيه الاختلاف،يقول: الآية الثانية، وهكذا..حتى تنتهي المسائل، الجدير بالذكر أن عدد الآيات الأم في الكتاب (٢٧٤)، وإذا أضفنا إليها الآيات المتشابهة التابعة للأصول السابقة يصبح عدد الآيات (٣٥٢) آية متشابهة، وقد فات عليه رحمه الله آيات متشابهة كثيرة استدركها عليه الكرماني، وابن الزبير الغرناطي.

– من الملاحظ على منهج الخطيب الإسكافي في كتابه أنه يستدرك على نفسه إذا فاته الحديث عن الآية في موضعها حسب ترتيب المصحف، فيذكر الآية التي فيها المتشابه في الموضع الثاني، وينبه على أن مكان هذه الآية كان في سورة كذا، ومن أمثلة ذلك قوله: (وكان حقها أن تذكر في موضعها، لكن لم تحضرني هناك فذكرتها مع أخواتها، وإن كان ذكرها متقدماً في القرآن..)(١٢). ويقول في موضع آخر: (حكم هذه الآية أن يكون ذكرها في سورة الأعراف، ثم لما تأخرت وجب أن تكون في سورة العنكبوت، إلا أنا رأيناها تتعلق بهذه السورة فذكرناها فيها)(١٣).

---

(١٢) درة التنزيل: ٥٤.

(١٣) المصدر السابق: ١٢٤.

- ومن منهجه في الكتاب طريقة عرض المسائل، فقد اعتمد منهجاً خاصاً في توجيه الآيات المتشابهة، ففي كل سورة يعقد بحثاً خاصاً لكل آية من الآيات المتشابهة، يذكر معها ما ورد في كتاب الله من آيات مشابهة لتلك التي جعلها أصل المسألة، وهذا منهج يدل على الترتيب، وحسن العرض، ووضوح الرؤية، وقد أصبح منهجه هذا قدوة لمن جاء بعده، فأخذ به من ألف في الآيات المتشابهة بعده.

مصادر المؤلف:

كما مر بنا في ترجمة الإسكافي أن كتب التراجم لم تذكر شيئاً عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم، كما لم تذكر أي كتاب أو كتب اعتمد عليها الخطيب في مؤلفاته بشكل عام، وفي كتاب الدرة بشكل خاص، إلا ما ذكر عن تأليفه كتاباً يوضح فيه غلط كتاب العين، وآخر اختصر فيه كتاب العين، كما ألف كتاباً عن شواهد كتاب سيبويه، وهذا الأمر أشار إليه المترجمون في ترجمتهم له، ولا نعلم عنه شيئاً.

ونحن حين نتأمل كتاب الدرة، ونتتبع ما قاله الخطيب الإسكافي من أوله وحتى نهايته، يتبين لنا أنه رحمه الله صاحب علم جم وثقافة واسعة، وصاحب اطلاع واسع، ولهذا قال في مقدمة الكتاب: (تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين)، ولكن ليس هناك أي تصريح سواء في مقدمة الكتاب أو في صلبه، بذكر أي مصدر قد يكون استقى منه محتوى هذا الكتاب أو أي جزء منه.

ومن خلال استقراء الكتاب يمكن القول إنه اعتمد رحمه الله في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم على العديد من المصادر أهمها:

- القرآن الكريم وعلومه: حيث اعتمد على تفسير بعض الآيات ببعضها مما يظهر مدلول الآية ويوضحها(١٤)، كما أنه يعتمد في توجيه الآيات على سياق السور والآيات وهذا أمر جلي، وسنقف مع هذا الأمر حين نتحدث عن قضايا الكتاب. كما استفاد أيضاً من ترتيب القرآن بأنواعه كالترتيب المكي والمدني، أو أسباب النزول، أو حسب ترتيب السور في المصحف، وهذا أمر ملاحظ في الكتاب(١٥).

---

(١٤)انظر مثلاً: درة التنزيل: ٤٤.

(١٥)انظر: مثلاً: ١٠، ٢٥-٢٦، ٥٧، ٦٥، ١١٥-١١٦، ١١١، ٢٥٢-٢٥٣.

– الحديث الشريف والأثر: الخطيب الإسكافي يعد مقلاً من حيث الاستشهاد بالحديث والأثر، وربما كان سبب ذلك عدم ربط الكتاب بهما، فمراد الكتاب معرفة الأسرار والحكم من الاختلاف الوارد بين الآيات المتشابهة، ومع هذا استشهد الخطيب بالأحاديث والآثار في أكثر من موضع(١٦).

– علم القراءات: اعتمد الخطيب الإسكافي في بعض مسائله على القراءات، واختلاف القراء، فكشف بذلك بعض جوانب الاختلاف بين الآيات المتشابهة على ضوء اختلاف القراءات في الآية(١٧).

– أقوال المفسرين: اعتمد الخطيب على أقوال بعض المفسرين من الصحابة والتابعين، مثل: ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، ولم يشر إلى كتب بعينها(١٨).

– آراء النحويين واللغويين: الخطيب الإسكافي أحد أعلام اللغة والنحو، ولهذا أكثر مصنفاته حول اللغة والنحو، وفي كتابه درة التنزيل يظهر ذلك بشكل واضح وجلي، حيث استفاد من اللغة في توجيه اختلاف الألفاظ القرآنية، كما أن كتابه مليء بالمباحث النحوية التي تدعم رأيه وتوجيهه، أما من ذكرهم في كتابه فهم قلة، وقد يصرح أحياناً بأسماء كتبهم، كالخليل بن أحمد (ت١٧٠) في العين، وسيبويه(ت١٨٠) في الكتاب، أما الفراء(ت٢٠٧)، والمبرد(ت٢٧٦)، فذكرهما بالاسم فقط(١٩).

ثالثاً: قضايا الكتاب وقيمته العلمية:

– المنهج التطبيقي

وحين نتأمل كتاب الخطيب الإسكافي (درة التنزيل وغرة التأويل) نجده رحمه الله يعتمد المنهج التطبيقي في تحليل أسرار لكل آية تناولها في كتابه الذي فتح به أبواب هذا العلم، وسار عليه العلماء الذين سلكوا مسلكه، ونهجوا منهجه في التأليف في هذا العلم، فأصبح قدوة يقتدى به في ذلك.

منهجه في توجيه الآيات المتشابهة :

عناية الخطيب الإسكافي في البحث عن الدلالة المعنوية في توجيه الآيتين المتشابهتين، أو الآيات المتشابهة في كل موضع يقوم بتوجيهه.

---

(١٦)انظر مثلاً: ٢٥، ٤٩،

(١٧)انظر مثلاً: درة التنزيل: ٤٤، ٨.

(١٨)انظر درة التنزيل: ١٠١،٦٦،٥٢،٥١،٤٩.

(١٩)انظر: درة التنزيل: ٦٦، ١٦، ١١.

عناية الخطيب الإسكافي بإبراز مطابقة الكلمة في السياق الذي وردت فيه في الآيات المتشابهة

- **التميز والإبداع** : لقد تميز جهد الخطيب الإسكافي في إخراج هذا العمل الجليل، وحُقّ أن يوصف الكتاب بالجدة والإبداع، وذلك لأمور منها:

أولاً: الجدة في اختيار الموضوع، وهذا أمر مشاهد ومعلوم، فالكتاب يعد -حسب ما أعلم- أول كتاب في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وبه فتح الخطيب الإسكافي أبواب هذا العلم، وهو قول قال به الخطيب، ووافقه عليه جمهرة من علماء التفسير والمتشابه، كالكرماني، وابن الزبير، والشهاب الخفاجي وغيرهم، فكتاب درة التنزيل يعدّ بحق من أقدم وأظهر وأشهر الكتب في توجيه المتشابه.

ثانياً: الجدة في تناول المسائل، سواء من حيث ترتيب الآيات على حسب ترتيب المصحف الشريف، أو في طريقته في توجيه كل مسألة حتى أصبح الكتاب كأنه مقسم إلى فصول كل فصل يحتوي على مباحث، فكل آية تعد مبحثاً مستقلاً، أو اتخاذه الأسلوب العلمي الأدبي حيث نرى جودة العبارة، وحسن الصياغة، أو سلوك المنهج التطبيقي، ذلك المنهج الذي عرف به الإمام عبد القاهر الجرجاني، وجار الله الزمخشري.

ثالثاً: الأسلوب المتميز الذي صاغ به كتابه، فقد كان للغة الخطيب الإسكافي في كتابه مذاق خاص، ولعل ذلك يرجع إلى أن اللغة التي تكشف حقائق المعرفة لها أثرها وقيمتها، كما أن حقيقة المعرفة لها أثرها وفعاليتها، فالكتاب الذي يبدأ بالمعرفة ويفتح باب علم من العلوم ليست لغته وطريقته ومنهجه كطريقة من جاء بعده، ولنا أن نتأمل كتاب سيبويه في باب النحو، وكتاب عبد القاهر في باب البلاغة وهكذا جاء كتاب الإسكافي في هذا الفن، وسأقف بعد قليل عند قدرة الإسكافي اللغوية والنحوية.

٤- طول النفس في عرض المسائل: من الأمور الواضحة لقارئ كتاب درة التنزيل ملاحظة طول نفسه رحمه الله في توجيه الآيات المتشابهة، وهذا أحد نتائج الأسلوب التطبيقي والتحليلي الذي انتهجه الخطيب في الكتاب.

٥- قدرة الخطيب الإسكافي اللغوية والنحوية: هذه إحدى السمات البارزة في كتاب الدرة .

المبحث الثاني: منهج الكرماني في البرهان:

الإمام الكَرْمَاني هو محمود بن حمزة بن نَصْر الكَرْمَاني، النحوي، تاج القراء، وأحد العلماء الفقهاء النبلاء، صاحب التصانيف والفضل، كان رحمه الله آية في الفهم، وحسن الاستنباط، لم يفارق وطنه كرمان، ولا رحل عنها(٢٠).

أما آثاره : فإن من يتأمل ما ألفه الكرماني يلحظ أنه التزم منهج التخصص الدقيق، فلا نجد من بين مؤلفاته إلا ما هو متصل بعلوم القرآن الكريم، كما أن اهتمامه بالنحو مرتبط بصلته الوثيقة بالقراءات.

أما وفاته رحمه الله فلا تُعلم أيضاً، كما لم تُعلم ولادته ونشأته، وأغلب المصادر أخذت بعبارة ياقوت الحموي في معجمه، لأنه أقرب إلى عصر الكرماني حيث أخبر أنه توفي بعد الخمسمائة من الهجرة النبوية، وهذه عبارة لها احتمالات كثيرة، وكل ما في الأمر أنها تنفي وفاته قبل هذا التاريخ(٢١).

ويعد كتاب (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)(٢٢) امتداداً لكتاب درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، لأن الكرماني رحمه الله يروي كتاب الدرة إلى مؤلفه، فقد ذكر ذلك في مقدمة الكتاب، وتأثره به هو السبب الرئيس الذي دفعه لتأليف كتاب البرهان، ولهذا فإنه أخذ منهجه وطريقته، إلا أن بينهما اختلافات.

منهج المؤلف:

انتهج الكرماني منهج الخطيب الإسكافي في كتاب الدرة الذي سبق أن تحدثت عنه في المبحث الأول، وقد أشار إلى شيء من منهجه في مقدمة الكتاب، يقول رحمه الله: (فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة،ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان والتقديم والتأخير

---

(٢٠)انظر ترجمته في:غاية النهاية لابن الجزري:٢٩١/٢،وبغية الوعاة:٢٧٧/٢،وطبقات المفسرين للداودي: ٣١٢/٢.

(٢١)انظر: معجم الأدباء: ١٢٥/١٩.

(٢٢)الكتاب مطبوع بعدة تحقيقات أفضلها وأجودها ما حققه الأستاذ أحمد عز الدين ،وهي النسخة التي اعتمدتها في دراستي، وهي الطبعة الأولى عام: ١٤١١هـ عن طريق دار الوفاء بمصر، كما أن الكتاب حقق في دراسة علمية لنيل درجة الماجستير، بكلية أصول الدين بالرياض عام: ١٣٩٩هـ.

والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة الأخرى التي تشاكلها أم لا؟ ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها)(٢٣).

- سلك رحمه الله مسلك المفسرين في ترتيب السور والآيات، فبدأ بسورة الفاتحة وانتهى بسورة الناس، مراعياً ترتيب التلاوة سورة سورة، وآية آية، فيذكر السورة ثم يتناول ما فيها من الآيات المتشابهة مرتبة حسب ترتيب التلاوة، حتى إذا ما انتهى من السورة انتقل إلى السورة التي تليها، ثم يذكر الآية الأم ويلحق بها ما يشابهها من الآيات من نفس السورة، ومن باقي السور بطريقة استقرائية دقيقة، ثم يبين أسرار اختصاص كل منها بما جاء فيها من متشابه، وهذا الأمر كما سبق القول مأخوذ من طريقة الإسكافي، إلا أن جهد الكرماني أدق في جمع الآيات المتشابهة، ويلحظ ذلك من اطلع على الكتابين وعقد بينهما مقارنة.

وهنا ملاحظتان: الأولى: أن الكرماني قد استدرك كثيراً من الآيات التي فاتت على الإسكافي، وأن ابن الزبير استدرك أيضاً ما فات على الخطيب وعلى الكرماني، وسأوضح ذلك في حديثي عن انفرادهما بتوجيه بعض المسائل. الأمر الآخر هو أن العلماء الثلاثة (الخطيب الإسكافي، والكرماني، وابن الزبير)، قد استقصوا ما في كتاب الله من متشابه، وحتى يتبين ذلك يمكن الرجوع عند كل مسألة قاموا بتوجيهها إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن،أو إلى كتاب دليل المتشابهات اللفظية، ومن جاء بعدهم نقل عنهم، وأخذ طريقتهم، وأخص بالذكر ابن جماعة، والأنصاري.

- إذا كانت الآية قد سبق توجيه ما فيها من المتشابه في موضع آخر، أشار إلى ذلك بقوله (قد سبق) دون أن يقوم بتوجيهها وهو كثير جداً في الكتاب، إلا أنه لا يشير إلى الموطن الذي تحدث عنها في الكتاب(٢٤).

- أخذ الكرماني بمنهج الإيجاز الشديد، والاختصار الدقيق في توجيه الآيات المتشابهة، فأسلوبه أشبه بأسلوب البرقيات، مختصر ولكنه واضح في معظمه، وهو في هذا قد أوتي ملكة أداء المعنى بأخصر عبارة ممكنة، وهذا يدل على تمكنه من اللغة، إلا أن هذا الأسلوب في توجيه الآيات المتشابهة يصعب تحقيقه، لأن

---

(٢٣)المصدر السابق: ١١٠.

(٢٤)انظر: البرهان: ٢٣٣،٢٣٥،٢٩٦،٢٩٨،٣١١،٣٢٤،٣٢٥ وغير ذلك كثير.

الآيات المتشابهة تحتاج إلى بسط وزيادة توضيح، فالحال معها أشد للبيان والإيضاح، ولهذا أرى أن الكرماني يوجز إيجازاً شديداً في بعض المسائل، وهي في الواقع تحتاج إلى بسط، وبيان، فمثلاً يقول في سورة يونس: (قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ، في هذه الآية فحسب، لأن قوله قبله ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾:٢٨، وقبله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾:٤)(٢٥)، ومثل ذلك قوله عن آية البقرة: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ : ١٨٤: (قيده بقوله: ﴿منكم﴾، وكذلك قوله ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾:١٩٦، ولم يقيده في قوله: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ ١٨٥، اكتفاء بقوله: **﴿فمن شهد منكم﴾** لاتصاله به)(٢٦)، ولهذا أجده في بعض المسائل يقول: (أطنب الخطيب في هذه الآيات، ومحصول الكلام..)(٢٧)، ثم يذكر التوجيه بإيجاز شديد.

- وكما حصل للخطيب الإسكافي في استدراكه على نفسه إذا فاته الحديث عن الآية في موضعها حسب ترتيب التلاوة، حصل للإمام الكرماني فنجده يشير للمكان الذي ينبغي أن يتحدث فيه عن الآيتين المتشابهتين، فمثلاً يقول: قوله تعالى في هذه السورة -يقصد الزمر- : ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾:٣٥، وفي النحل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾:٩٦، وكان حقه أن يذكر هناك)(٢٨)، ثم يذكر توجيه الآيتين.

قضايا الكتاب وقيمته العلمية:

بعد أن عرفنا أثر كتاب درة التنزيل وغرة التأويل في الإمام الكرماني وفي تأليفه لكتاب البرهان في متشابه القرآن، حيث نهج منهجه واتبع طريقته في التوجيه والتبويب، وقد سبق أن تناولت كتاب الدرة

---

(٢٥)البرهان: ٢١٦.

(٢٦)المصدر السابق: ١٣٦-١٣٧.

(٢٧)المصدر السابق: ١٣٨

(٢٨)المصدر السابق: ٣٢٢.

وبسطت القول في قضاياه ومسائله، وبذلك أكون قد أخذت تصوراً ولو يسيراً عن قضايا ومسائل الكتب التي ألفت بعد الخطيب الإسكافي وسارت على ذلك المنهج في العرض والتحليل، أما الإمام الكرماني عليه فإنه يروي كتاب درة التنزيل عن مؤلفه، وهذا يدل بما فيه الكفاية على أثر الكتاب في نفس الإمام الكرماني.

أما أبرز معالم الكتاب وقضاياه،وقيمته العلمية فإنها تتمثل في الأمور التالية:

١- المنهج التطبيقي:

الإمام الكرماني اعتمد الإيجاز والاختصار في كتابه إلا أن مسألة التطبيق والتحليل للنص باقية مع هذا الإيجاز الذي أوقعه في عدد من المواضع في محذور الإيجاز الشديد، وقد بينت ذلك في التعريف بالكتاب، والحق أن تطبيق هذا المنهج مع هذا الأسلوب أمر صعب ولا يستطيعه إلا من آتاه الله دقة في الفهم وحسناً في الاستنباط، وهذا ما وصف به الكرماني في ترجمته، ويزيد من ذلك أن هذا الأمر مطبّق على الآيات المتشابهة في القرآن الكريم وهذا ما يزيد من وعورة المسلك.

أما ملامح منهجه التطبيقي فتتضح من خلال ربطه لسياق الآية الواحدة، وربط الآية بما جاورها من آيات حتى يصل لسر الاختلاف الوارد بين الآيتين أو الآيات المتشابهة، أيضاً البحث الدقيق في سياق الآيات حتى يخرج بدلالة معنوية، أو دلالة لفظية، فلا تكاد ترى موضعاً إلا ونظر فيه إلى سياق الآية ، أو إلى سياق الآيات المجاورة لها، فمثلاً: كثيراً ما يقول: لموافقة ما قبله، أو لموافقة ما بعده، أو: لأنه في هذه السورة تقدم كذا، إذا كان السياق المراد بعيداً عن الآية التي هي محل الدراسة.

كما أن الكرماني يربط بين الظواهر البلاغية مجتمعة، وهذه طريقة الإسكافي وقد أشرت إليها في الفصل السابق، فتجد أن بعض الآيات فيها ذكر وحذف، وتقديم وتأخير،واختلاف في حروف العطف، فيرتب أفكاره ويتحدث عنها مجتمعة، فبعضها يستدعي بعضاً .

٢- الأسلوب:

لقد تميز كتاب البرهان بالإيجاز والاختصار، فمثلاً بعض الآيات يتناولها الخطيب الإسكافي في صفحتين يتحدث عنها الكرماني في ثلاثة أسطر، وأسلوبه في الغالب واضح، وهذا إن دل فإنه يدل على الملكة التي يتحلى بها الكرماني في أداء المعنى بأخصر عبارة ممكنة، وسأذكر ثلاثة أمثلة متوالية في كتابه ويمكن الرجوع لكتاب الإسكافي أو الغرناطي لمعرفة الفرق بين الأسلوبين في مسألة الإيجاز.

٣– القدرة العلمية:

أبرز الكتاب تمكن الإمام الكرماني من مادته العلمية، فهو رحمه الله كما عرفنا في التعريف به صاحب مصنفات في فنون مختلفة، فهو عالم تفسير وله مصنفات في ذلك، كما أنه عالم قراءات وله مصنفات في ذلك، كما أن له في علم اللغة مصنفات أيضاً، وهذه القدرة أضفت على الكتاب سمة العمق في التحليل، والدقة في الاستنباط، نظراً لسعة علم المؤلف ودقة فهمه، ولهذا نرى في الكتاب الكثير من أقوال المفسرين والقراء وعلماء اللغة بما له صلة وثيقة في توجيه الآيات المتشابهة، وإلا فإن التفصيل والبسط في كتاب (لباب التفاسير)، وكتاب (غرائب التفسير وعجائب التأويل) حيث نقل أقوال المفسرين وأئمة اللغة، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتاب البرهان وأحال عليهما.

ومما يؤكد قدراته العلمية مقدرته الفائقة على استحضار آيات القرآن الكريم ووجوه قراءتها، بل استحضار اللفظة القرآنية في جميع الآيات التي ذكرت فيها، وكأنه رحمه الله يطالع معجماً مفهرساً لألفاظ القرآن الكريم وآياته وقراءاته، ولهذا فقد جمع آيات متشابهة لم يقف عليها الخطيب الإسكافي، وقد أوضحت ذلك في موطنه من البحث، لأن تلك المواضع مما انفرد بتوجيهها.

٤– انفراده بتوجيه بعض المسائل:

إذا كان الكرماني رحمه الله قد اقتفى أثر الإسكافي في تأليف الكتاب، واتبعه كذلك في طريقته ومنهجه في توجيه الآيات المتشابهة، ووافقه في كثير من المواضع، بل نقل واختصر مواضع كثيرة أيضاً، ومع هذا فقد جاء بمواضع جديدة، أبدى فيها رأيه وملاحظته، وتلقاه عنه من ألّف في هذا الفن بعده، وهي تدل كما ذكرت سلفاً على قدرته على استحضار الآيات.

المبحث الثالث: منهج ابن الزبير الغرناطي في ملاك التأويل:

هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، يكنّى بأبي جعفر، وكذلك بابن الزبير نسبة لأحد أجداده، ، وكان رحمه الله يلقب بالأستاذ تعظيماً لشأنه وتنويهاً بمكانته في العلم والدين(٢٩).

وقد ولد ببلدة جيّان بالأندلس عام ٦٢٧هـ، ونشأ في بيئة غنية كان لها الأثر في إعانته على طلب العلم، وانتقل عن مسقط رأسه وهو في سن البلوغ إلى غرناطة حيث نشأ وترعرع وطلب العلم، وبدأ نجمه يسطع، فغلبت عليه نسبة المدينة فأصبح يلقب بالغرناطي(٣٠).

بلغ مكانة علمية رفيعة، وانتهت إليه الرئاسة في الأندلس في علوم الشريعة واللغة العربية، فبرّز في علوم التفسير والحديث والقراءات والنحو والتاريخ وغيرها، وقد تولى ابن الزبير الغرناطي التدريس والقضاء، والإمامة والخطابة بغرناطة (٣١).

أما مذهبه فهو سني العقيدة مالكي المذهب، كان شديداً على أهل البدع كالمعتزلة، والخوارج، والرافضة، وابن الزبير رحمه الله وإن كان ينتسب لأهل السنة فقد مال إلى المذهب الأشعري في تأويل بعض الصفات(٣٢).

خلّف ابن الزبير آثاراً عظيمة، خلّدت ذكره، ونفعت الناس بعده، منها: (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل)، وهو أشهرها، ومنها: (البرهان في ترتيب سور القرآن)، و(إيضاح السبيل من حديث جبريل) (٣٣)، هذا وقد توفي ابن الزبير رحمه الله سنة ٧٠٨هـ بغرناطة.

ويأتي كتاب (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي، فإذا كان كتاب الدرة فتح أبواب هذا العلم، ولصاحبه فضل السبق، فإن كتاب ملاك التأويل يعد أوسع كتب المتشابه وأضخمها، ففيه بسط وبيان، وتوضيح لدقائق القرآن، مع أسلوب علمي امتاز بالوضوح وحسن العبارة، قال

---

(٢٩) انظر ترجمته في: الذيل والتكملة: ٣٩/١، تذكرة الحفاظ: ١٤٨٤/٤، والإحاطة في أخبار غرناطة: ١٨٨/١.

(٣٠) انظر: ملاك التأويل، ت سعيد الفلاح: ٦٢/١-٦٣، وفيه تحقيق آخر لمحمود كامل أحمد.

(٣١) انظر: المصدر السابق: ٦٥/١، ٨٠-٩٠.

(٣٢) انظر: المصدر السابق: ٦٩/١-٧١، وانظر: البلاغة القرآنية في ملاك التأويل، لإبراهيم الزيد، أعدت لنيل درجة الماجستير، لم تنشر، جامعة الإمام عام: ١٤١٣هـ: ١٣، ٣٩٩-٤٠٩، فقد تناول عقيدة ابن الزبير ومذهبه بشكل مفصّل.

(٣٣) انظر: مقدمة ملاك التأويل: ٩١-٩٧.

عنه الزركشي حين عدد كتب المتشابه: (..وهو أبسطها في مجلدين)[٣٤]، وقال عنه السيوطي بعد أن أثنى على كتاب درة التنزيل: (..وأحسن من هذا ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير)[٣٥].

منهج المؤلِّف في الكتاب:

أخذ ابن الزبير رحمه الله بمنهج الخطيب الإسكافي، سواء في ترتيب المسائل أو طريقة عرضها وتوجيهها، إلا في اختلافات يسيرة:

– فقد تتبع كل الآيات التي تدخل في التشابه اللفظي مراعياً ترتيب التلاوة سورة سورة وآية آية، مبتدأً بسورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، مرتباً الآيات في كل سورة، فيذكر الآية الأم في المتشابه، ويلحق بها ما يشابهها في السورة نفسها أولاً ثم من السور الأخرى مرتبة.

– ابن الزبير لا يعيد ما تحدث عنه في الآيات الأخرى المشابهة للآية الأم في السور الأخرى، بل إنه لا يشير إلى أنه سبق الحديث عنها كما فعل الكرماني في البرهان، فنراه في بعض سور القرآن لا يذكر فيها شيئاً من المتشابه مع وجوده إلا أنه سبق أن تحدث عنه في سورة سابقة.

– كما ذكر ابن الزبير في المقدمة فقد اعتمد الآيات التي ذكرها الخطيب في الدرة، وزاد عليها ما نقص من الآيات المتشابهة، بل ربما تبعه في التوجيه أو خالفه، وغالباً ما تكون له شخصية مستقلة حتى ولو وافقه في توجيه الآية فإنه يخالفه في طريقة عرضه وتحليله.

– اتخذ ابن الزبير طريقة في التنبيه على ما أغفله الإسكافي من الآيات المتشابهة، فيضع أمام الآيات التي لم يذكرها الخطيب الإسكافي حرف غين (غ)، للدلالة على أن هذا الموضع من مغفلات الدرة، يقول ابن الزبير:(..ما لم يقع في كتاب درة التنزيل، ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل ولا تأويل، فنبهنا إلى ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل، فعلامة (غ) تدل على أنه من المغفل..)[٣٦].

وقد عقد محقق كتاب ملاك التأويل الدكتور الفلاّح مقارنة بين كتاب ملاك التأويل ودرة التنزيل فقال: (تبين أن مجموع الآيات التي تناولها الإسكافي في كتابه بلغ ثلاثاً وسبعين ومائتين (٢٧٣ آية)، بينما بلغ ما تناوله ابن الزبير سبعاً وسبعين وثلاثمائة (٣٧٧ آية)، فيكون بذلك عدد ما أغفله صاحب درة التنزيل وحظي

---

[٣٤] البرهان في علوم القرآن: ١/١١٢.

[٣٥] الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٣٩.

[٣٦] المصدر السابق: ١/١٤٧-١٤٨.

بعناية صاحب ملاك التأويل مائة وأربع آيات (١٠٤آيات)، يضاف إليه عدد كبير من الآيات أوردها ابن الزبير في نطاق سرد الآيات المتشابهة، أغفلها صاحب درة التنزيل، فقد كان ابن الزبير أكثر استقراء وتتبعاً وتحرّياً(٣٧).

أما قضايا الكتاب وقيمته العلمية:

فإذا كان حديثنا في المبحثين الأول والثاني عن عالمين من علماء المشرق الإسلامي فإن الحديث هنا مع أحد علماء الأندلس والمغرب الإسلامي، وإذا كان كتاب (البرهان) للكرماني وقيمته العلمية يأتي في المرتبة الثانية من حيث الترتيب الزماني لكتب التشابه اللفظي من حيث الأهمية بعد كتاب درة التنزيل للإسكافي، فإن كتاب (ملاك التأويل) يعد أوسع كتب المتشابه اللفظي بعد كتاب درة التنزيل، وإن جاء بعد كتاب البرهان بقرنين من الزمان، ولهذا نال استحسان العلماء كالزركشي والسيوطي(٣٨).

وقد نال الكتاب هذه المكانة لأسباب كثيرة منها: أن ابن الزبير قد اطلع على كتاب درة التنزيل، واستفاد منه، فلم يختصره كالكرماني بل بسط القول فيه، وعقّب على بعض أقوال الإسكافي، وجاء بآيات كثيرة لم يتناولها الخطيب الإسكافي، ويضاف إلى ذلك ما أعطاه الله من علم جم في علوم شتى، مع قدرته اللغوية والنحوية في التعبير عما يريد الإفصاح عنه.

١- **المنهج التطبيقي**: وهذا المنهج له فضائله في الدرس البلاغي، لأنه الوسيلة، وكذلك الغاية للوقوف على الأسرار والدقائق البلاغية في النص، فهذا منهج لا محيد عنه لمن يدرس الآيات المتشابهة.

وهو مثال في تطبيق هذا المنهج، ولك أن تفتح الكتاب على أي موضع فتجد هذا المنهج بما وصفت، فقد اعتنى بإبراز أسرار النظم القرآني من خلال الآيات المتشابهة، فيبحث في سياق الآية، ويتأمل مفرداتها وتراكيبها، ويقوم بربط الآية بالسياق المتقدم والمتأخر، وربما نظر في سياق السورة كاملة ليوضح لنا العلاقة التي تربط المعنى بالمبنى، وأذكر على سبيل المثال توجيهه لموضعين تتجلى فيها هذه الروح.

٢- **شخصية المؤلف**: يعد الخطيب الإسكافي أبرز المؤثرين في ابن الزبير في تأليف الكتاب، وقد ذكر ذلك ابن الزبير في مقدمة الكتاب،وأوضحته في سبب تأليفه للكتاب، لكن هذا التأثر يعد تأثراً إيجابياً،

---

(٣٧)المصدر السابق: ١/١١٣.

(٣٨)انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١١٢، والإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٣٩.

صاحبه شخصية متميزة وموهبة فذّة، فقد كان له رحمه الله وقفات كثيرة تبرز تلك الشخصية، يقول في مقدمة الكتاب: (وأبديت بحول ربي من مكنون خاطري إلى الظهور، ما أثبته بعون الله وقوته في هذا المسطور، عين ما ذكره -يقصد الإسكافي- من الآيات، ومستدركاً ما تذكرته مما أغفله رحمه الله، من أمثالها من المتشابهات برفع تلك الإشكالات، وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرب البطولات، من غير أن أقف في أكثر ذلك على كلامه إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه، ولا ناقلاً إلا في الشاذ النادر كلام أحد من أرباب المعاني، إذ لم يتعرض أحد غير من تقدّم ذكره لما من هذا الضرب أعاني).

ثم يقول معتزاً بموهبته وشخصيته بعد ذلك: (..وإنما يلقيه فكري إلى ذكري، فيلقيه ترجمان فهمي على قلمي، وإن آثرت بعض ما عليه لغيري عثرت فنقلت، أفصحت بالنسبة وعقلت، وما أرى ذلك يبلغ في هذا المجموع غاية أقل الجموع، وإن نيف فيسير..وما سوى ذلك فأنا ابن نجدته وذو عهدته ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ النحل: ٥٣)[٣٩]، فهو لا يطالع المسألة في درة التنزيل إلا بعد أن يبدي رأيه الذي يلهمه الله فيها، وإذا كنت قد قلت إنه وافق الخطيب الإسكافي في كثير من المسائل فإنه قد خالفه في مسائل كثيرة أيضاً.

٣- **الإحاطة والشمول:** لقد تميز كتاب ملاك التأويل بإحاطته وشموله لكل الآيات المتشابهة، وإذا كنت قد أثنيت على كتاب (البرهان) للكرماني في إحاطته بكل الآيات المتشابه، فإن ابن الزبير قد أحاط بذلك كماً وكيفاً، وبسطاً وتحليلاً، فكان رحمه الله يكثر من الاستشهاد بأقوال العلماء وآرائهم من مفسرين، ولغويين وشعراء، كما أن وقفاته في الرد على الفرق من أهل التعطيل طويلة، ولك أن تستعرض أي مسألة من مسائل الكتاب لترى ذلك واضحاً، وأفضل من ذلك أن تقرأ مسألة في ملاك التأويل ثم تقرأها عند غيره ممن تحدث عنها لتجد الفرق أكثر وضوحاً.

ولهذا نراه يشير إلى المواضع التي لم يتحدث عنها الإسكافي بوضع حرف غين (غ) عند أول المسألة للتنبيه إلى ذلك[٤٠]، أضف إلى ذلك أن مسألة واحدة يستغرق بحثها عند الخطيب الإسكافي صفحة أو صفحتين، تجدها عند ابن الزبير في خمس وربما في عشر، ولهذا جاء الكتاب في مجلدين كبيرين.

---

[٣٩] ملاك التأويل: ١٤٧/١.

[٤٠] انظر: مثلاً: ٣٢١/١، ٣١٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٢٩٤، ٢٨٦، ٢٨٣، ٢٧٩، هذه مواضع في أربعين صفحة فقط كلها عليها إشارة (غ).

٤- **القدرة العلمية:** هذا العلم -علم المتشابه اللفظي- في الحقيقة لا يستطيعه إلا من آتاه الله قدرات علمية كبيرة تمكنه من فهمه ومعرفته، وكما علمت في حديثي عن حياة ابن الزبير العلمية أنه على اطلاع واسع في علمي النحو واللغة، وهذه المعرفة خطوة كبيرة لمعرفة أسرار اللغة وبلاغتها، وشيخ ابن الزبير وقدوته في النحو سيبويه أما تلميذ ابن الزبير فهو أبو حيان، وإذا نظرت إلى قدرته اللغوية ألحظ في كتابه ملاك التأويل الفهم الدقيق لدلالة الألفاظ وإيحاءاتها، حيث يوضح الأسرار في اختيار الألفاظ ومناسبتها للسياقات الواردة فيها(٤١).

هذا في شأن قدرته النحوية واللغوية ،ولك أن تقول مثل ذلك في علم أسباب النزول، وعلم أصول الفقه، والحديث والتفسير والقراءات، وقد أثرت تلك العلوم بحث ابن الزبير وأدخلت على كتابه كثيراً من عناصر التشويق والتنويع.

٥- **الالتزام بالمنهج:** التزم ابن الزبير بذلك المنهج حتى نهاية الكتاب، وابن الزبير قد تروقه بعض المسائل فيريد الاستطراد فيها، وفجأة نراه يتذكر ذلك المنهج الذي أوضحه في أول كتابه فيعود إلى ما بدأ به، ومن كلماته في ذلك: (..وليس هذا مما بني عليه هذا الكتاب..)(٤٢)، ويقول في موضع آخر: (وبسط هذا في مظانه)(٤٣)، ويقول: (وليس هذا بالجملة من الغرض المبني عليه هذا الكتاب)(٤٤)، ويذكر أحياناً بالمراد من الكتاب يقول في أحد المواضع: (وبقي السؤال عن وجه تخصيص كل من الموضعين بالوارد فيه، وهو مقصودنا من هذا الكتاب..)(٤٥).

٦- **طول النفس:** من الأمور المشاهدة في كتاب ملاك التأويل طول نفس ابن الزبير في عرض القضايا والمسائل، وإذا كنت قد وصفت كتاب درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي بذلك، فإن كتاب ملاك التأويل يعد امتداداً لذلك الكتاب، بل إن ابن الزبير تميز بالاستقراء الجيد لكل موضع تناوله في كتابه، واستدرك عليه ما نقص، فمن الأمثلة على ذلك جمعه للآيات التي ورد فيها التعريف بالجزاء الأخروي

---

(٤١) انظر: مصادر المؤلف في هذا الفصل، وانظر: ملاك التأويل: ٢١٢/١، ٢٤٦، ٣٢٩، ٣٥٩، ٥٦٥، ١٠٤١/٢، ١١٣٥.

(٤٢) ملاك التأويل: ٢٩١/١.

(٤٣) المصدر السابق:٣٦٣/١.

(٤٤) المصدر السابق:١١٤٦/٢.

(٤٥) المصدر السابق:٣٠٢/١.

للمؤمنين، ووصف جزائهم في الجنة، فقد جمع ابن الزبير ثلاث عشرة آية، بينما لم يذكر الخطيب إلا ست آيات، وقد تحدثت عن ذلك في الباب الثالث في موضع ذكر لفظ التأبيد (أبداً) وحذفه في الآيات المتشابهة(٤٦).

وإذا استثنينا كتاب درة التنزيل وجدنا أن جل الكتابات في هذا الفن جاءت بطريقة موجزة وسريعة، كطريقة الكرماني، وابن جماعة، والأنصاري، وأسلوب الإيجاز أسلوب محمود، وكما قيل البلاغة الإيجاز، إلا أنه – في رأيي المتواضع– غير مناسب في هذا المقام، فتوضيح الاختلاف بين الآيات المتشابهة أمر يحتاج إلى أدلة وبراهين يعرف من خلالها خصائص تركيب الآيات، ودلالاتها، وهذا لا يكون بلمحة سريعة موجزة .

٧– **انفراده بتوجيه كثير من المسائل**: سبق أن أشرت إلى أن كتاب (ملاك التأويل) تميز بالإحاطة والشمول لكل الآيات المتشابهة، وتميز أيضاً بالبسط والتحليل، وهنا أشير أنه انفرد بكثير من الآيات المتشابهة، فقد دوّن في كتابه ما فات على الخطيب الإسكافي، والإمام الكرماني.

---

(٤٦)انظر: ملاك التأويل: ١/٣٣٥–٣٤٠، ودرة التنزيل: ٥٣–٥٥، وانظر: الفصل الأول من الباب الثالث حيث تم بحث المسألة.

الخاتمة:

خرج البحث ببعض النتائج والثمرات العلمية المهمة، منها:

١- أن البلاغة القرآنية هي المجال الأرحب للدراسات والبحوث البلاغية الراقية، فهي ذروة سنامه وعموده، وبحره الذي لا ينفد.

٢- أن المنهج التطبيقي في البحث البلاغي الذي يعتمد التحليل والبحث عن الأسرار البلاغية الدقيقة أفضل المناهج، وأكثرها فائدة، وأقربها إلى نفس المتلقي، وهو المنهج الذي سار عليه سلف هذه الأمة، وعرف عند أئمة البلاغة وروادها.

٣- تعد كتب المتشابه اللفظي التي قامت عليها الدراسة مثالاً جيداً ومتميزاً، في استخدام المنهج التطبيقي في الدراسات البلاغية.

٤- أظهر البحث أن الآيات المتشابهة من أعظم الدلائل على إعجاز القرآن الكريم، فاختلاف جملة أو كلمة، بل وحرف، يبرز أسراراً عظيمة، وحكماً عجيبة، لا يتصورها إلا من يتأمل ويتدبر هذا الإعجاز العظيم.

٥- يعد كتاب درة التنزيل وغرة التأويل أقدم كتاب وصل إلينا في توجيه الآيات المتشابهة، وعليه اعتمد كل الذين صنفوا بعده، سواء أشاروا إليه كالكرماني، وابن الزبير.

٦- كما أن كتاب البرهان في متشابه القرآن للكرماني يعد أبرز الكتب في اختصار توجيه الآيات المتشابهة، أما كتاب ملاك التأويل فهو أحسن الكتب من حيث
السعة والتفصيل، وبسط المسائل، وقد استدركا ما فات على الإسكافي من آيات.

٧- برز في البحث عناية علماء المتشابه اللفظي بالسياق، فكثيراً ما يربطون بين الآية وما جاورها من آيات، وهذا باب جيد ومذهب حسن في ملاحظة السياق الأسلوبي، فملاءمة العناصر بعضها لبعض إحدى الأسس التي بنى عليها العلماء دراستهم للآيات المتشابهة، فأصبح لكل كلمة مع ما جاورها مقام، وهذا الباب يمكن أن ينقل لدراسة النصوص الأدبية.

٨- كشف البحث الغطاء عن مسألة التأثر والتأثير بين علماء المتشابه، وعن قدرات علماء المتشابه العلمية واللغوية الواسعة، التي كان لها أعظم الأثر في بناء مصنفاتهم.

هذه أبرز النتائج الرئيسة التي ظهرت في هذا البحث الموجز، سائلاً المولى التوفيق والسداد، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

كتبه / صالح بن عبد الله الشثري

الرياض

أبرز المصادر والمراجع:

- لسان العرب
- التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤف المناوي
- متشابه القرآن دراسة موضوعية للدكتور عدنان زرزور:
- البرهان في علوم القرآن
- الإتقان في علوم القرآن
- معترك الأقران في إعجاز القرآن
- التحبير في علم التفسير
- كشف المعاني لابن جماعة
- درة التنزيل
- معجم الأدباء
- الوافي بالوفيات لصفوت الصفدي
- بغية الوعاة للسيوطي
- درة التنزيل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين
- غاية النهاية لابن الجزري
- بغية الوعاة
- طبقات المفسرين للداودي
- البرهان في متشابه القرآن
- الذيل والتكملة
- تذكرة الحفاظ
- الإحاطة في أخبار غرناطة
- ملاك التأويل، ت سعيد الفلاح